صلة الجَّان بالإنسان

ارسلت لمجلة المجلة ولم تنشر ١٤٢١/٩/١٥هـ - ٢٠٠٠/١٢/١١م [١]

في العمق السحيق من الذاكرة الإنسانية أشياء كثيرة مخيفة ولاسيما في طفولة الحياة الأولى وبدايتها حيث الظلام والطبيعة القاسية والإنسان الذي يعيش شبه وحدة في بيئة مخيفة متقزمة تصاحبه هوام الأرض وطيور السماء وتحيط به السباع والحيات ومخلوقات الله الفطرية. والإنسان معها يعيش في طور الفطرة ويراقب ما حوله بخوف وتوجس ورهبة عظيمة لاسيما حين تكفهر الطبيعة من حوله وتتحرك بعواصف عظيمة وهيجان كبيرة، يرى الجبال العالمية الشامخة ويرى السحاب الذي يكون بعضه ظلمات بعضها فوق بعض ويسمع الرعد يزلزل الارض تحت أقدامه ويرى البرق يكاد يخطف بصره، ويقع في مهب الريح العاصفة التي تحدث الرعب في نفسه وهو منتبذل صغير الحجم والجسم ضعيف القدرة إلا أنه مختلف عن كل ما حوله من شؤون الطبيعة فهو المفكر العاقل القادر على النظر والتأمل الحريص على أن يعيش بسلام مع نفسه ومن حوله من عوامل الطبيعة وما فيها.

(١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب.
جمهرة أشعار العرب.
الحيوان، ج٦ – ص١٦٠.

www.mtenback.com

قاده هذا التفكير إلى ضروب شتى من الحيل لاتقاء شرٍّ ما يحيط به، فعبد بعض ما يشاهده في الأرض أو ما يخيله في السماء وأعطى عقله فسحة في أن يتعامل مع الأشياء بحذر، وأن يفسر بعض ظواهر الطبيعة تفسيراً يناسب موقعه منها، زاعماً أن بعضها نافع وبعضها ضار وأن لبعضها قوة فوق قوتها، ولم يستطع تفسير ما يراه حوله من صور الحياة وقسوة الطبيعة، ومع تعامله الطويل مع الطبيعة خلق نوعاً من المسلمات عنده آمن بها وتوارثتها الأجيال واكتنزتها الذاكرة الشعبية البدائية الساذجة حتى تحول بعض ما يعتريه إلى معتقدات راسخة في موروثه العقلي وتفكيره الذهني وأصبحت هذه الموروثات تجري على لسانه ويصنفها خياله مع الواقع الذي يتكيف فيه. ولعل أهمما حيره في مسيرة تاريخه الطويل مع البيئة التي يتعامل معها شعوره بالعجز أحياناً كثيرة عن معرفة كنه الأشياء وعدم قدرته على تبرير أشياء أخرى يراها أو تقع له أو يتصورها ثم لا يجد لها تفسيراً يناسب اندهاشه بها وتفاعله معها سلباً أو إيجاباً من جانب، ومن جانب آخر يتعرض بقدراته المحدودة لامتحان يصعب عليه تعليله أو تبريره فيوجد لعجزه تعليلاً تعذيراً أو مبرراً يخلقه ليبعد عن نفسه العجز الذي يحس به ويسيطر عليه، ولعل ما يخص العرب في بداية حياتهم وما مهروا به وافتخروا فيه هو الكلام الذي صار ظاهرة عربية وقد نشا أسلافهم البدائيون على منثور القول ومشتركة، وتحدثوا بلغة المنثور ردحاً من الزمن ثم تطور هذا الحديث المشترك إلى أنواع وأشكال شتى وأصبح النثر مرحلة تقع

www.mtenback.com

ضمن أطر مرحلية كثيرة ومع الممارسة والدربة تبدل الحال فصار الكلام نظماً ونثراً.

كان الجميع في بداية الأمر يتحدثون لغة واحدة يعبرون بها عن حاجاتهم اليومية واتصالهم المحدود ولم يلبثوا حتى تمايزت قدراتهم اللغوية وارتفعت شؤونهم في الحديث فكان منهم الخطباء المؤثرون ومنهم الشعراء القادرون على نظم صروف من الكلام لا يستطيعها غيرهم وعندما اتسق للعرب بيان الكلام وبلاغته وارتقوا في سلم الفصاحة درجات عالية تبين لهم اختلاف الكلام وتأثيره وجدانياً لدى المتلقي وكان الشعراء أول من فتق الكلام وبهر به السامعين، وجاءوا بما لم يألف العامة من الناس فسموهم «الشعراء» بمعنى أنهم أهل العلم الذين يعرفون كثيراً من المعارف لا يعرفها غيرهم من أبناء جنسهم ولغتهم ويتميزون به على غيرهم، من بني جنسهم ذلك أنهم أتوا بما لا يستطيع عامة الناس الإيتان بمثله، وقد أطمعهم وصفهم بصفة العالم بالتميز والاختلاف عن غيرهم وشعروا بالتفوق في جانب الكلام المنظوم.

وتكرر من العامة سؤال هو كيف يقول هؤلاء كلاماً مثل كلامنا ولكنه مؤثراً أكثر مما نؤثر نحن وكلام الشعراء كلام يتكون من فردات تتردد على ألسنتهم في كل مناسبة ولكنها تأتي على لسان الشاعر فتحدث شيئاً من الاستغراب، والناس مولعون بالبحث عن أسباب الغرابة وتفسيرها فوجدوا أن

www.mtenback.com

نسبة ما هو معجز إلى عالم غيبي غير منظور شيئًا مريحًا للعاجزين عن الشعر. وقد زعمت العرب في جاهليتها أن الشعراء الذين يأتون بهذا الغريب المعجز إنما يأتون به بمعاونة الجن والشياطين وأن لكل شاعر شيطانًا يساعده على قول الشعر ولولا ذاك لما تميز في صف الكلام على غيره ممن يعرف اللغة نفسها ويدرك مفرداتها.

وهذا الزعم كان تبريراً لعجز غير الشعراء عن قول الشعر ولكن الشعراء صيروه ميزة لهم وفخروا بأن لهم أعوانًا من غير جنسهم فاستغلوا الميل الفطري لدى الناس بالتبرير وجعلوا الشيطان الذي يلقي إليهم الشعر شيطانًا خاصًا لهم متحداً معهم مواصلاً لهم مختصًا بهم، فكسبوا جولة من جولات الخيال البدائي وتأصل في اعتقاد الناس أن الجن أو شياطين الجن هي التي تلهم هذا الشاعر أو ذاك كلامًا لا يشبه كلام الناس وإن كان منه جملة ومفردة إلا أنه مختلف عنه أثراً وشعوراً، وقد عقد صاحب ثمار القلوب في المضاف المنسوب فصلاً عن شياطين الشعراء ننقل عنه ببعض ما جاء فيه من ذلك فهر الشعراء بهذه الصلة والالتباس والاختلاط بينهم وبين الجن وهذا الأعشى يزعم ذلك بل يؤكده حين يقول :

وما كنت ذا قولٍ ولكن حسبتني ... إذا مسحل يبري لي القول أنطق

خليلان فيما بيننا من مودةٍ ... شريكان جني وإنس موفق

www.mtenback.com

وقد صارت الصلة أخوة صادقة بينه وبين جنيه حين يقول :

حباني أخي الجني نفسي فداؤه بافيح جياش العشيات مرجم

وقد صار الجن للشاعر أخاً وخليلاً ولم لا يكون هذا الفخر بأخوة الشيطان الذي يجعله شاعراً لا يطأطىء رأسه لأحد فيقول :

دعوت خليلي مسحلاً ودعوا له جهنام، جدعًا للهجين المذمم

ومثله حسان بقوله :

ولي صاحب من بني الشيصبان فحينا أقول وحيناه هوه

ومع الشعراء القصاص وسمار الليل بأحاديث مهولة ملهية عن علاقتهم بالجن ورؤيتهم له وأحاديث معهم وهذه الحكايات والقصص كانت فناً أدبياً أجاده أهل الجاهلية وملأوا به الخيال حين يصف أحدهم الفلاة القفر وما يتعرض له فيها من الجنون والشياطين، يأتونه أحياناً على صورة حيات أو ظبا أو حتى يتجنسون بصورة البشر ويجري بينهم وبين الناس حكايات وصلات وشعر وأحاديث وضيافة ليلية كما يقول تأبط شراً:

رأوا ناري فقلت : منون أنتم فقالوا: الجن قلت عموا ظلاما

فالجن في الخيال العربي مخلوق يعيش في الظلام ويكره النور والضوء حتى لا تنكشف صورته التي لا يريد أن يراها إخوانه من البشر ولم يلبث الشعراء أن أدركوا حاجتهم للجن والاستعانة بهم والترهيب لعدوهم بقدرتهم

www.mtenback.com

غير المعتادة إذ الجن هو الذي يلقنهم القول ويعنيهم على الخصم، وأي شيء أشد على المرء من أن يكون خصمه معاون بشياطين الإنس والجن وهذا أبو النجم يهدد بقوة مراسه ويزعم تفوقه على كل شاعر من البشر لأن شيطانه ذكر وشياطين غيره أناث :

إني وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطاني ذكر

ويفخر جرير بشيطانه أيضاً فيقول :

إني ليلقي عليَّ الشعر مكتهل من الشياطين إبليس الأباليس

وكما يكون التفاوت بين البشر في القدرات فكذلك يكون التفاوت بين الجن على حد زعم أعشى بن سويلم حين يهجو جني الفرزدق فيقول :

وما كان جني الفرزدق قدوةً وما كان فيها مثل فحل المخبل
وما في الخوافي مثل عمرو وشيخه ولا بعد عمروٍ شاعر مثل مسحل

ولا يغفل الشاعر إذا رأى نقصاً في سنه أو جسمه من أ، يقول على لسان جنيه الذي لا يكون بصفته :

إني وإن كنت صغير السن وكان في العيني نبو عني
فإن شيطاني أمير الجنِّ يذهب بي في الشعر كل فن

ومثله قول ابن ميادة مهدداً:

ولما أتاني ما تقول محارب تغنت شياطيني وجن جنونها

www.mtenback.com

وتبعه منظور بن رواحه بقول :

فلمـا أتـاني مـا يقـول ترقصـت شياطين رأسي وانتشين من الخمر

والهزيمة الشعرية للشاعر الخصم هي من قوة شياطين الغالب على حدل قول أبو السمط :

وإذا التقينـا ذاد شـعري شـعره ونـزا علـى شـيطانه شـيطاني

ولجرير رأي في الشعر ورقيه إذ يقول :

رأيـت رقـى الشـيطان لا تسـتفزه وقد كـان شـيطاني مـن الشـعر راقيـا

ولـم يكتـف الخيـال القصصـي في الشـعر العربـي بالمعاونـة والإلهـام ولكنـه جعل الجن هم الشعراء في حقيقة الأمر وما الشعراء الإنس إلا ناقلو هذا الشعر إلى الناس فكان لكل شاعر إنسي رديف من الجن هو الشاعر في الحقيقة وهذا ما ينقله صاحب جمهرة أشعار العرب عن ابن المروزي عن أبيه الذي ضرب في مفازة فأطلعه الله على الشعراء الجن الذين صنعوا القصيد للإنس وألقوه إليهم فيقول من حكاية طويلة عن شياطين الشعراء أن أحدهم أنشده شعر عبيد بن الأبرس فلما عرف الشعر ونسبه إلى عبيد قال له الجني ومن عبيد لولا هبيد، فلما سأله عن هبيد هذا أنشأ يقول :

أنـا ابـن الصـلادم أُدعـى الهبيـد حبـوت القـوافي قرمـي أسـد
عبيـداً حبـوت بمـا ثـورةٍ وأنطلقـت بشـراً علـى غيـر كـد

www.mtenback.com

ولاقـى بمـدرك رهـط الكميـت / مـلاذاً عزيـزاً ومجـداً وجـدّ
منحنـاهم الشـعر عـن قـدرةٍ / فهـل تشـكر اليـوم هـذا معـد

ولم يبخل علينا الثعالبي في ثمار القلوب، ولا أبو زيد القرشي في جمهرة أشعار العرب بأسماء عدد من الشعراء الجن الذين كان كل واحد منهم مختصاً بشاعر إنسي وملازماً له، فمدرك بن واغم هو صاحب الكميت، وهو ابن أبو الصلادم هبيد شاعر عبيد بن الابرصِ ، أما لافظ بن لاحظ فهو شاعر إمرىء القيس، وكان هاذر هو صاحب النابغة الذبياني وهلم جرا من هذه الأسماء والمسيمات الجنية الإنسية وقانا الله وغياكم شرها. أما رؤيتهم للغول وصحبتهم لها فخذها من ألسنة شعرائهم.

فللـه در الغـول أي رفيقـة / لصـاحب قفـر خـائف متقتـر
أرنـت بلحـنٍ بعـد لحـنٍ وأوقـدت / حـوالي نيرانـاً تلـوح وتزهـر

ومثلها قوله:

وقـد لقيـت منـي السـباع بليـةً / وقـد لاقـت الغيلان مني الـدواهيا

فالغول لم تعد ذلك الشيء المجهول وإنما أصبحت رفيقة في حال وخصم لدود في حال أخرى ولا يمكن أن يكون ذلك لولا تراكم الموروث الأدبي عن حياة الغيلان وصلتها بالإنسان ولإن الأغراب مطلب في هذه البيئة المتوحشة المقفرة فإن الشاعر يمد لخياله العنان فيصبح خليلاً صديقاً لوحوش الصحراء وسباعها وغيلانها:

www.mtenback.com

أهذا خليل الغول والذئب والذي يهيم بربات الحجال الكواهل

أو يزعم الالتحام التام معها بعد العداوة :

وصار خليل الغول بعد عداوةٍ صفيا وربته القفار البسابس

هذا رأي الشعراء والأدباء ورؤيتهم لعلاقتهم بالجن ومن هذا الإرث الأدبي الكثير نشأت قناعة عند الناس أن الجن هم القادرون على الأعمال العظيمة الخارقة التي يقوم بها الإنسان عندما يتلبس به الجن أو عندما يصاحبهم ولا يختلفون حول قدرة الجن على الاختفاء والتلبس.

ولم يأت الإسلام إلا وقد صار لدى العرب قناعة بوجود الجن وتعاملهم معه بشكل خيالي مغرق في الغرابة وقد حملوا الأعمال الخارقة على عمل الجن في كل شيء واصبح التراكم المعرفي في موروثهم الأدبي والذهني مسلماً بهذه الصلة والقدرة حتى صار أي عمل غير عادي يقوم به الإنسان ينسب إلى الجن والشيطان والعفريت وأمثالهم من قوى خارقة خارجية غير مرئية، ولما نزل القرآن وارسل النبي محمد ﷺ كانت معارف العرب قد بلغت حداً من التراكم التاريخي والتأصيل الفكري الذي يملي حدوداً من المعرفة الإنسانية التي يمكن عدها مرجعية تراثية ومنطلقات ذهنية يؤمن العرب بها ويعتقدون صحتها ومنها الجن وعلاقته بالإنسان واتصاله بهم ولهذا السبب وجدنا القرآن الكريم يأتي مجادلاً العرب فيما يعتقدون من معارف غيبية أو حسية ويخاطبهم بما يمكن أن يوصف بأنه تعبير عن حقيقة ما يرون أو يفسر ما يظنون أو يصف ما يعتقدون.

www.mtenback.com

وقد عرض في شكل واضح لعلاقة الجن بالإنسان وصلته به وجاء ليبين الصحيح من هذه العلاقة فأنزل الله سورة الجن وما فيها وبين أنهم خلق من خلق الله وأن لهم حياة خاصة بهم وأن منهم المؤمنون ومنهم غير ذلك، كما هو حال الناس الذين ارسل إليهم محمد ﷺ . وذكر في صريح القول أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدون، ولا أظن أن هناك مؤمناً بنبوة محمد ﷺ والقرآن يمكن أن ينكر وجود الجن خلقاً آخر وأحد الثقلين.

لكن القرآن بين في كثير من آياته الكريمة علاقات الجن بالإنس وأعمالهم وأورد من الأسماء والصفات آيات كثيرة وعدد الأسماء وبين المختلفات منها .

فذكر القرآن كلمة « الجن» في أكثر من خمسين موضعاً من الكتاب الحكيم منها :

﴿ وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴾

﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مّنَ الإِنسِ ﴾

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مّنَ الْجِنّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مّنَ الْجِنّ وَالإِنسِ ﴾

www.mtenback.com

أما الشيطان فقد جاء ذكره في أكثر من خمسة وثمانين موضعاً من القرآن منها :

﴿ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ ﴾

﴿ نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾

﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً ﴾

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ ﴾

﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ ﴾

﴿ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾

وذكر العفريت مرة وأحدة صفة للجن في قوله :

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾

وجاءت عشرات الآيات والنصوص القرآنية التي تبين عمل الشيطان وتحدد نشاطه وصلته بالإنسان.

إما إبليس فقد جاء ذكره اثنتي عشرة مرة في القرآن الكريم منها:

﴿ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾

www.mtenback.com

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾

﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ﴾

أما الشيطان فقد وصفته الآيات بعمل يقوم به وأحكمت الصلة بين عمل الشيطان وأخطاء الإنسان وجعلته مما يزيد نوازع الشر في النفس الإنسانية مثل ﴿ نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ والسياق يدل على أعمال يقوم بها بعض الناس ويجعلون الشيطان دافعاً إليها مقوياً عليها مشجعاً على ارتكابها وإذا تنصل الإنسان منها جعل تبعة ارتكابها على الشيطان.

وإذا نظرنا إلى نصوص القرآن نجد أن صورة الجن ووظيفته وعمله تختلف عن صورة الشياطين ووظيفتها وعملها، فالجن مستقل عاقل مؤاخذ على عمله مجري عليه يقوم بالعمل ابتداء منفرداً عن غيره، وتبعت عمله تقع عليه وهو مسؤول كما هو حال الإنسان ومسؤليته عن كل ما يعمل إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

أما الشيطان فهو مرتبط بالإنسان من جانب وبالجن من جانب آخر وهو إلى الإنسان اقرب وقلما يستقل بعمل عن غيره، بل لقد نص القرآن الكريم على أن الشيطان صفة للإنس والجن يشتركان فيها ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً

www.mtenback.com

شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنّ ﴾ إذ يفهم من هذا أن الشيطان يظهر بصورة أعمال شريرة يقوم بها بعض الثقلين الإنس والجن فيصيرون شياطين بارتكابهم هذه الأعمال، وقد عهدت العرب لغتها إلى أن الأعمال غير المرغوبة هي من تأثير الشيطان، ولا زلنا نستعمل هذا في حياتنا اليومية وهو أن عامة الناس وخاصتهم إذ فعلوا فعلاً وندموا عليه وتنصلوا منها قوال: إنه نزغ من عمل الشيطان، وقالوا نعوذ بالله من الشيطان ولم يعهد من أحد أنه قال نزع من الجن ولاسيما فيما يتعلق بالجرائم والحدود والأخطاء البشرية حيث ينسب التشجيع على ارتكابها للشيطان ولا يرد للجن ذكر في كل ذلك. والمراد من هذا كله أن العرب تفرق تفريقاً بيناً بين الشياطين والجن ولا تخلط بينهما، وكذلك نصوص القرآن تفرق تفريقاً واضحاً بينهما إلا ما كان من أعمال يشترك هؤلاء بالصفة الغالبة فيها.

أما النوع الثالث غير الجن والشياطين فهو إبليس وقد ذكر في القرآن اثنتي عشرة مرة وهو معروف قام بعمل فيا لماضي أخرجه من الجنة عندما عصى أمر الله ولم يسجد لآدم، وأغلب الآيات التي ذكرت إبليس كانت تقريعاً له بعصيانه أمر الله وأصبح عدواً للإنسان محاولاً صده عن الطاعة ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾.

www.mtenback.com

ولعل من ينظر في نصوص القرآن بوعي وفطنة وتفكير وتدبر يدرك خصوصية كل واحد من هذه الأسماء الثلاثة بالرغم من تشابك مفهوم العرب في بعض الأحيان لها، وقد خلط العامة بينهم في أحيان كثيرة، وعن الاختلاط لدى العامة من الناس في حقيقة هذه الأسماء الثلاثة نتج خلط عظيم في الأعمال المنسوبة لكل منهم، ولم يفرق الناس بين هؤلاء في الآثار الأدبية والقصص كما فرق القرآن ووضح للناس.

وسبب الخلط هو ارتكاز الذهن العربي على ما ورثه من تراثه القديم قبل نزول القرآن وتحديد الأعمال التي يقوم بها كل واحد من الجن والشياطين والأبالسة وقد مرَّ معنا من الشعر شهادات كثيرة لمعتقدات العرب التي لا تفرق بين الجن والشياطين والأبالسة، ولا تحدد الحدود الواضحة بينهم مثلما حددها القرآن وبينها.

وقد استمرت ضبابية الرؤية حتى لدى المسلمين وساروا على نهج الأولين في عدم التفريق بين الأعمال التي يقوم بها كل جنس من هذه الأجناس الثلاثة فخلطوا بينها وجعلوا الجن والشياطين وحتى إبليس كلمات مترادفات لمعنى واحد فقالوا في ذلك اقوالاً كثيرة حتى في الأحاديث المروية في كتب الصحاح مثل حديث : إن الشيطان عرض لي فشد علي ليقطع الصلاة علىَّ فأمكنني الله منه فذعته، ولقد هممت أن أوثقه إلى سارية حتى تصبحوا فتنظروا إليه فذكر

www.mtenback.com

قول أخي سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ هذا نص الحديث في البخاري. أما نصه في صحيح مسلم « أ، عفريتًا من الجن جعل يفتك عليَّ البارحة ليقطع عليَّ الصلاة، وإن الله أمكنني منه فذعته فلقد هممت أن أربطه إلى جانب سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون أو كلكم ثم ذكرت قول أخي سليمان: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ فرده الله خاسئًا.

فرواية حديث واحد في الصحيحين جمعت الشيطان والجن والعفريت وسبب تعدد الأسماء في الحديث الواحد هو أن الأحاديث تروي بالمعنى ولا يفرق الرواة بينها ولذلك روي الحديث بأسماء مختلفة فجعل الشيطان والجن والعفريت أسماء مترادفة لمسمى واحد ولا شك أن الرسول ذكر أحد هذه الثلاثة ولم يذكرها كلها وسبب ورودها متعددة أن الناس يظنونها مترادفة، والأحاديث تنقل بمعناها في ذهن الراوي وإلا فمن المعلوم بالضرورة أن النبي ذكر واحدً من هذه الأسماء فقط والرواة تصوروا – كعادة العرب – أن الجن والشيطان والعفريت شيء واحد. وعلى هذا الإرث الكثير من التراث العربي رسخ فهم عند عامة المسلمين وبعض خاصتهم بأن للجن سلطان على الإنسان وأنه يضر الإنسان ويؤذيه، وقد يغير حاله ويدخل في وسواس نفسه، وكثرة المرويات على مدى التاريخ وتعددت الحكايات عن الجن وما يفعل بالإنسان

www.mtenback.com

حين يتلبس به حتى قام التصديق وجاءت الآثار الكثيرة التي تعدد عمل الجن عندما يتلبس الإنسان ويدخل فيه بل بلغ ببعضهم أنه يرى أن التزاوج بين الجن والإنس كان يحدث كثيراً كما يقول بالحرف الواحد: « وقد يتناكح الإنس والجن ويولد بينهما ولد، وهذا كثير معروف، وقد ذكر العلماء ذلك وتكلموا عليه» [1] وانظروا إلى كلمة كثير معروف.

وعلى هذا الفهم وتحديد الصلة القوية بين الثقلين الإنس والجن كان لابد أن يستغل الأذكياء من الناس فهم العامة ويستفيدون منهم أو من بعضهم ولاسيما الذين يرققون القلوب ويغرمون بالخوارق والإغراب الذي يشد انتباه الناس ويدهشهم فكانت حكايات الجن وما يسبب للإنسان من أذى وصرع وجنون مما اتكأ عليه هؤلاء في اعتقادهم على ما كانت العرب تعتقده قبل الإسلام إذ يرون أن ما يصيب الإنسان من اختلال في قواه العقلية، ومداركه هو مسٌّ من الجن وخبل يصيبون بها الإنسان فقالوا أن المخبول والمصروع به مس من الجن وعندما بعث الله محمداً برسالته الخالدة لم تجد العرب صفة له، ولما يقول لهم إلا أن به مسا من الجن وهذا القرآن يحكي اقوالهم ويردها عليهم : ﴿أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ

(١) فتاوى ابن تيمية، ج١٩، ص٣٩ .

www.mtenback.com

لَمَجْنُونٌ﴾ ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ وغير ذلك من الآيات التي تحكي قول الجاحدين ووصفهم للنبي عندما قال ما لا يعتقدون فوصفوه بالجنون لخروجه على مألوفهم من عبادة الأوثان والشرك بالله.

وقد مثل القرآن على ما يعتقد اعرب ويفهمون موافقًا اعتقادهم ومقربًا إليهم حالاً في الآخرة يرون مثله في الدنيا وهو آكل الربا عندما شدد عقوبته فقال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ .

وعلى هذا التشبيه زعموا أن الجن يدخل بدن الإنس ويصرعه ويؤذيه وحجتهم هذا النص القرآني وأنه يدل على أن الجني يدخل في جسد الإنسان، وليس في ذلك دليل إنما هي مشابهة حال بحال، فالعرب تعتقد بأن المصروع به مس من الجنون فجاء القرآن يقرب لهم حال من يأكل الربا بحالٍ يشاهدونها وهي معروفة محسوسة لديهم فالتشبيه بما يعتقدون وليس تصديقًا لما يقولون وفي القرآن الكريم آيات مثل ذلك منها : ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ فلم يكن عامة العرب يعرفون رؤوس الشياطين ولم يروها قط ولكن شبه لهم ما يستقبح ويستهول في أذهانهم كما يقول العلماء بالعربية: « ليس من الناس من رأى شيطانًا قط على صورته، ولكن لما كان الله قد جعل في طبائع جميع الأمم استقباح صورة الشيطان واستسماجه وكراهته، أجرى هذا على ألسنة جميعهم، وضرب المثل به في ذلك، ورجع بالإيحاش والتنفير وبالإخافة والتفزيع إلى ما جعله في طبائع الأولين والآخرين والشيوخ والصبيان والرجال والنساء».

www.mtenback.com

وهذا القول ينطبق على تشبيه آكل الربا بالمصروع الذي يزعم العرب أن به مسًّا من الشيطان، وقد شرح اللغويون هذه المعاني وأمثالها ودلالتها في لغة الخطاب العربي من ذلك ما رواه أو عبيدة حين سئل عن الآية وقال له السائل : « إنما يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله وهذا لم يعرف » فكان جوابه فاصلاً لمعرفته بسياق اللغة ومعانيها ودلالتها عند المتكلمين فقال : « إنما كلمهم الله تعالى بما يعرفون، وعلى كلام العرب، أما سمعت قول امرىء القيس :

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول، كلن لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به » والشيء إذا استقبح شبه بالشياطين، فيقال كأنه وجه شيطان، وكأنه راس شيطان، والشيطان لا يرى، ولكنه يستشعر أنه أقبح ما يكون من الأشياء لو رأوه لرأوه في أقبح صورة، ولم تر الغول ولا أنيابها، ولكنهم بالغوا في تمثيل ما يستقبح من المؤنث بالتشبيه له بالغول، وما يستقبح من المذكر بالتشبيه له بالشيطان ومثلها الآية الأخرى: ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً﴾.

والجان لا يظهر للعامة ولم يره الناس والتمثيل لما يعتقدون من قبحه وما قر في أفئدتهم من نشاطه وسرعته واختلاله.

وتشبيه آكل الربا بمن به مسٌّ من الشيطان تنفير للعرب من خطيئة الربا بشيء يعرفونه ويستقبحونه ويهولهم حدوثه فخوفهم الله بما يخشونه ويعظمونه

www.mtenback.com

ويرهبون وقوع مثله لهم، وذلك فحسب ، ولكن الفهم الخاطىء للسياق اللغوي والبحث عن الأدلة جعل بعض الناس يتجاوزون المعروف في دلالة اللغة إلى ما لا تدل عليه، ولم يعوزهم البحث عن نصوص أخرى أكثر بعداً عما يريدون، منها ذكرهم الحديث المشهور « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» وقد جعلوا هذا الحديث دليلاً على أن الجن يدخل جسد الإنسان دخولاً ماديًا. وهذا فهم لا يقره من له معرفة بكلام العرب وسنن حديثهم ولغتهم، وقد كان يردد هذا الحديث مستشهداً به الناس الذين يرون دخول الجن بدن الإنس، وآخر ما سمعت بعضهم يقول : « إن من فضائل الصوم أنه يضيق مجرى الدم في عروق الصائم فلا يترك متسعًا لمرور الشيطان» وهو قول بعيد عن الحقيقة اللغوية، وفهم باطل لا يجوز التسامح فيه. ومعنى الحديث الموافق لنظام اللغة هو أن الشيطان له مداخل إلى النفس الأمارة بالسوء يستغل ميولها وشهواتها وما تحب أن يكون لها فيدخل إليها بوساوسه وبطرق لا تحسها ولا تدركها كما يدخل الدم ويجري في العروق دون أن يراه الإنسان أو يحسه وهو متشرب بلحمه متصل بكل جزء من جسمه، وكذلك الشيطان في إغوائه للإنسان واستهوائه، له مداخل خفية إلى النفس لا يحسها ولا يدركها إلا من رحم ربي، وهو معنى مجازي قصد منه التشبيه الذي يقر به إلى الإدراك، ولا يفهم منه الدخول المادي الذي يردده بعض من لا علم له بالعربية وإلا لكان يفهم قوله تعالى : ﴿أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ فهمًا آخر. والآيات التي مثل هذه الآية

www.mtenback.com

كثيرة ولا شك أن الاعتقاد السائد عند العرب إلى يومنا هذا هو أن المصروع به جن، ولا ينكر ذلك أحد، وكل الناطقين بالعربية إذا رأوا الإنسان يتصرف تصرفات غير سلمة أو فيها حمق ورعونة، وفيها نشاط وقوة غير عادية قالوا: إنه مجنون، وإذا ثار العاقل واشتد به الغضب قالوا : إنه مجنون، وهم لا يعنون بالتأكيد أنه دخل جسده جن، إنما يعنون أنه خرج عن طوره المعتاد وانضباطه واتزانه ذلك فحسب .

ومن الأدلة التي يسوقها بعضهم على دخول الجن بدن الإنس الحديث الذي مر ذكره وهو أن الشيطان عرض للنبي في صلاته فقال : « فذعته ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح موثقاً حتى يراه الناس » وفي رواية مسلم عفريتاً من الجن « لأصبح موثقاً يلعب به ولدان أهل المدينة».

فهذا الحديث أصبح شاهداً عند بعضهم على دخول الجن جسد الإنس والرسول يقول في نص الحديث أنه ذعته وأنه كاد يربطه بسارية في المسجد حتى يراه الناس والذي يربط بسارية المسجد أو يعلب به ولدان أهل المدينة حتى يراه الناس ليس ذاك الذي يجري في العروق مع مجرى الدم، ولا ذاك الذي يتلبس الجسد ويدخل فيه دخول الروح، ولعل ذلك من معجزات النبوة، ولم يذكر النبي أنه جاءه متلبساً بجسد أحد من الناس، وأنه ذعت أحداً لإخراج الجن منه كما يفعل الناس اليوم. فيخنقون ويضربون ويعذبون بحدجة أنهم

www.mtenback.com

يخرجون الجن وما يفعلون ذلك إلا بالمرضى الذين يستحقون الرحمة والشفقة والعطف عليهم وتخفيف ما ألم بهم .

بعد هذا كله يحق لنا أن نسأل عما نراه اليوم من قصص الجن وآثاره وما يتعلق به بعض المشعوذين الذين يستغلون ضعف الناس وحال بعض المرضى ويخلطون بين ما هو حقيقي ومعروف في حدود الشريعة وبين ما هو خرافة ووهم أصبح يتجاوز الاعتقاد به ما هو معهود ومسموح فيه، ويضر الناس وينتقل من المشروع إلى المحرم، ونحن نسمع كثيراً الحديث عن السحرة والشعوذة والحرب لهم والاجتهاد بتطهير البلاد منهم وقمعهم، وفي الوقت نفسه نجد بعض الناس يعتقدون بالأوهام ويضفون عليها طابعاً دينياً، ويبحثون في الدين عن مسوغات لما لا يقوم عليه دليل إلا الظن والميل العاطفي مع موروث قديم جاهلي يعتقده أهل الجاهلية .

وقد بين الإسلام الحدود بين الحقيقة والخيال الشعبي، وحين يجتمع الخيال مع الحقيقة ويختلط الصحيح بالمزيف يصبح من الضروري التمييز بينهما ولاسيما حين يصل الأمر إلى الاعتقاد الذي لا يستند على دليل ويستعمل الدين أو الأحاديث لتبرير استغلال المرضى مادياً وغير ذلك، ويلبسون على من لا يعرف أحابيلهم كثيراً من الحجج مثل كلام الجن على لسان المريض الذي يعكس جنس المتحدث فإذا كان المريض امرأة صار

www.mtenback.com

الكلام لرجل وإذا كان المريض رجلاً الذي يعكس جنس المتحدث فإذا كان المريض امرأة صار الكلام لرجل وإذا كان المريض رجلاً صار الكلام لمرأة وهذه إحدى الحجج الواهية التي يرددها من يرون دخول الجن في الجسد البشري وقد سمعتها من بعضهم في أكثر من مناسبة، وتغيير الكلام ليس حجة وهو من أسهل الأشياء لاسيما إذا تعرض المريض أو المريضة للضرب المبرح فإنه للخلاص من التعذيب سيبحث عن كلام يقوله حتى يقنع من يتولى تعذيبه بتركه، ولعنا نذكر أنه قبل سنوات كانت هناك امرأة من إندونيسيا زعمت أن الجنين الذي في بطنها يتكلم كلاماً سمعه الناس وصدقوه، وقال لهم أنه يريد أن تذهب أمه إلى مكة المكرمة لتلده هناك، وقد استطاعت المرأة أن تخدع من استمع إليها وتوهمهم بأنهم يسمعون صوت الجنين في بطنها يخاطبهم وتناقلت وكالات الأنباء في ذلك احين الخبر، وأذكر أنني سمعت رأياً لبعض علماء الأزهر بثته إذاعة القاهرة تحدثوا فيه عن رأيهم حول ما زعمت المرأة وما سمع الناس منها وأذكر جيداً أن أحدهم قال : « إن ذلك مستحيل حدوثه». وقد ثبت بعد شهر من الحادث أن المرأة هي التي تتكلم وليس الجنين، والشاهد أنها استطاعت مغالطة الذين استمعوا إليها حتى المختصين منهم واستطاعت إيهام الناس بأن الكلام يخرج من بطنها، ولا شك أن الإنسان قادر على عمل الآلاعيب إذا كان هناك مصلحة له أو فائدة مما يعمل تعود عليه.

www.mtenback.com

لكن إذا ثبت أن هذه الميثولوجيا الشعبية تتلبس بلباس الدين وتستعمل مبرراً للأذى للإنس والجن فإن الواجب يحتم أن تدرس الظاهرة وتحدد مسلماتها والمواقف منها .

فالجن حقيقة قرآنية ووجودهم ثابت لكن الخلاف الشديد بين المسلمين منذ القديم هو فيما يضيفه الناس إليهم من أعمال يقومون بها لها صلة بالإنسان بعضها ضار وخطير وبعضها طريق ممهد إلى السحر المحرم والشعوذة الممقوتة والإضرار بالناس حتى صارت حجة السحرة تعتمد على بعض آراء المسلمين الذين بعدوا كثيراً بتصوراتهم للجن وعمله، وحاولوا لي أعناق النصوص لتخدم آراءهم وتوافق معتقداتهم وقد يتم تحت هذا الميل ضرب من التدجيل والصرع العقلي لمن يمارسون ما يسمونه إخراج الجان من جسد الإنسان فيتحول في بعض الأحيان هو نفسه إلى حالة من الوهم تخرجه عن منطق العقل والواقع وتلبس عليه الأشياء بغير لباسها.

لقد اتسع خيال الشعراء لمصلحة ذاتية فأضافوا إلى الجن عبقريات شعرهم وهزائم خصومهم، واتسع خيال أله الأحاجي وسمار الليل في قصص الجن والشياطين ومحاوراتهم الليلية التي يستمتع بها السمار على ضوء القمر، وأخذت الدائرة تتسع ليتحدث عنها الوعاظ والمذكرون فيضفون عبقريات جنية وشيطانية أخرى لها صلة ما في إيمان الناس أو كفرهم، والجن خلق مثلنا بعضهم من المسلمين وبعضهم من غيرهم والإسلام يحرم الظلم والكذب

www.mtenback.com

وبهتان الآخرين وما ينسب للجن من أعمال مؤذية هو لا شك طعن فيهم وظلم لهم إذا لم يكونوا فعلوه، والتحقق من فعل ما فعل الجن أو عدم فعله أمر في غاية الصعوبة بل هو مستحيل، والأولى ألا يظلم البشر إخوانهم من الجن وينسبون إليهم أعمالاً وأفعالاً قبيحة لم يفعلوها وهم برئيون منها إلا أن يقوم على ما يقولون دليل قاطع. والغريب أن بعض المسلمين يزعم أن الجن يسرقون من مال الإنس ويذهبون به إلى آخرين وقد يتهمونهم بأعمال وأفعال شائنة ومعيبة ومحرمة، ولاشك أن إخواننا من الجن يتألمون مما ينسب إليهم ظلماً وبهتاناً وخصوصاً المسلمين الصالحين منهم خاصة الذين يحرم الإسلام ظلمهم كما يحرم ظلم المسلمين من الناس ويحرم الكذب عليهم وبهتانهم.

والملاحظ أن بني البشر هم الذين يدعون الادعاءات الكثيرة ضد إخوانهم من بني الجن ولا يذكر ولو مرة واحدة أن العكس حدث وقام الجن بالدعوى ابتداء ضد البشر الذين يسيئون إلى الجن والشياطين والعفاريت والأبالسة كفانا الله شرهم وكفاهم شرنا وأعاذنا منهم وأعاذهم منا.

وقد كدت أقول شيئاً آخر عن بني شيطان وعجزهم في بعض ما نرى ونشاهد عن مجارات إخوانهم من بني الإنسان إذ يتغلب هؤلاء الآخرين على الأولين في كثير من قضايا الحياة وإغواء الناس والشياطين معاً لولا أنني قرأت الآية التي مرت معنا في أول هذا المقال فوجدت أن القرآن وهو أصدق

www.mtenback.com

الصادقين قد أضفى صفة الشيطان على الجنسين وساوي بينهما في الحكم والاسم فقال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾ وقد روى ابو ذر أنه صلى فساله النبي ﷺ إن كان قد تعوذ من شر شياطين الإنس والجن، واستغرب الصحابي طيب القلب أن يكون من الإنس شياطين يبدأو بهم الرسول قبل شياطين الجن، فرد عليه الرسول مؤكداً « نعم هم شر من شياطين الجن».

وإذا استوت يالحالتان بطل القياس وأظن أن شياطين الإنس وعفاريتهم أولى أن يستعاذ من شرهم ومكرهم وظلمهم والله أعلم.

موقع الدكتور مرزوق بن تنباك
www.mtenback.com

www.mtenback.com